المعرفة بين انقسام الرؤى الغربية وتكامل الرؤية الإسلامية

أ/ سلطان بلغيث
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة تبسه

الملخّص:

ثار سجال حاد بين الفلاسفة والعلماء حول دور كل من العقل والحواس في إنتاج المعرفة الإنسانية ،فهناك من يغلب دور العقل، وهناك من يرجح دور الحواس، في حين يدعو فريق آخر إلى الجمع بينهما على اعتبار أن المعرفة الموضوعية لا يمكن حصولها إلا بتظافر دور العقل والحواس ،غير أن العقل والحواس مهما كانت أهميتهما إلا أن المعرفة الحاصلة من خلالهما تبقى غير كاملة على اعتبار أنها تركز على عالم الشهادة وتتجاهل عالم الغيب، وهو ما أدى إلى ظهور المدرسة التكاملية التي تدعو إلى الجمع بين هدايات العقل والتجربة والوحي.وستحاول هذه الدراسة تقديم قراءة في هذا الموضوع في ضوء الدلائل والحجج التي يقدمها أنصار كل رؤية ابستمولوجية في التأسيس لموضوع المعرفة.

Abstract:

philosophers about the role of both the mind and the senses in the production of humanknowledge ،there are thosewho tend to the role of the mind ،and thereis more likely the role of the senses ،whileanother team calls to combine the two as the substantive knowledgecanbegainedonlyPtzafar the role of the mind and the sensesHowever ،the reason and the senses no matter how important ، however ،that the knowledge of the developmentswhichremainincomplete as itfocuses on the world of the certificate and ignore the unseen world ،whichled to schoolintegration ، which calls for a combination of Hidayat of reason ،experience and revelation. This study will attempt to provide reading on this subject in the light of the evidence and arguments offered by supporters of the foundation's vision Abestmologip to the subject of knowledge.

- **طبيعة المعرفة**:Nature of Knowledge

المعرفة في اللغة مشتقة من الفعل عرف بمعنى علم وأدرك، والمعرفة الاسم الدال على معين وضده النكرة.وفي لسان العرب يطابق مفهوم المعرفة مفهوم العلم، وكذلك في القاموس المحيط حيث نجد العرفان بمعنى العلم,وعلم بمعنى عرف.

أما من الناحية الاصطلاحية فقد واجه العلماء صعوبات جمة في الوقوف على تعريف جامع مانع بالنظر إلى أن المعرفة كلمة عامة وشاملة تندرج تحتها أشياء كثيرة بما في ذلك الخرافات والأساطير التي ما تزال حتى أيام الناس هذه تتغلغل في تفكير الإنسان وتحتل مساحات مهمة من تلافيف العقل البشري. وفي ذلك إشارة واضحة إلى حضور التفكير الأسطوري في كل تمفصلات الحياة الإنسانية، على الرغم من انحسار رقعة هذا التفكير الخرافي في العالم المعاصر–تحت ضغط الكشوفات العلمية الهائلة التي تشهدها البشرية–

فحيث يعجز العقل البشري عن تقديم التفسيرات الملائمة للظواهر،أو يعطل عن ممارسة دوره في التفكير، يبدأ عمل اللاعقل فاسحا المجال للإنسان كي يطير إلى فضاء بلا حدود خارج أسوار المنطق، ومن هنا يتبين السبب الذي جعل الإنسان يستأنس بالخرافة والأسطورة لأنها كانت بمثابة دفاعات نفسية تسد الفراغ الناجم عن غياب التفسير العلمي، أو الاعتراض عليه وإتباع هوى النفس في تفسير ما يحيط به من ظواهر,وعلى الرغم من أن الفتوح العلمية كشفت زيف الكثير من الخرافات والأساطير فإن البعض مازالوا يؤمنون بها في الوقت الذي نفض أغلب الناس أيد يهم منها.

1- تعطيل الحواس عن أداء دورها في إدراك الوقائع المحيطة بها.

2-اعتماد العقائد الفاسدة والفهوم المغلوطة في تفسير الظواهر مما أبعدهم عن الموضوعية وجعلهم يجانبون التفكير المستقيم.

3- إتباع الهوى، ووضع الحواجز أمام العقل في تبصر الوقائع، من خلال رفض الحجج والبينات.

ومن ثمة فالضرورة تقتضي أن يجتهد الإنسان في عرض معارفه على ميزان علمي موثوق يساهم في تصويبها وتجاوز سقطاتها، لأنه لامناص لنا من إخضاع مخزوننا المعرفي إلى محك النقد والتمحيص العلمي إذا أردنا أن نرتقي بمستوى معارفنا وننقيها

مما علق بها من شوائب التفكير البالي، لأنه في كل الحالات لا يمكن للعقل العلمي أن يتكوَن إلا وهو يحطم العقل غير العلمي[1].

ونجد في قاموس علم الاجتماع أن المعرفة فرع من علم الاجتماع تهتم بدراسة الترابطات الوظيفية بين البناءات الاجتماعية والعمليات الاجتماعية من جهة، والأشكال المحددة لمحتوى المعرفة والأنظمة الأيديولوجية من جهة أخرى[2].

وهكذا يتبين لنا أن المعرفة هي الجسر الرابط والحبل الواصل بين الأبنية الاجتماعية والعمليات الاجتماعية على مستوى كل الأنساق المشكلة للنظام الاجتماعي، وبالتالي فهي اللحمة التي لا غنى عنها والإسمنت المسلح الذي يكسب قوام المجتمع ثباته وتماسكه. وهي الغذاء الحيوي الضروري الذي بدمنه للعقل البشري الساعي على الدوام إلى تبديد الغموض الذي يحيط بحياة الإنسان وبالتالي فإن المعرفة هي حاجة تتمثل في سعي الفرد للحصول على صورة واضحة منظمة ومفهومة عن نفسه وعن العالم الخارجي المحيط به تصبح الإطار المرجعي لسلوكه [3].

فالمعرفة وفق هذا التوصيف عبارة عن مرآة عاكسة نبصر من خلالها عالمنا المزدوج الداخلي والخارجي ونسترشد بمفرداتها في تفكيك مغاليق هذا العالم، فهي تنتقل من العالم الخارجي(المجتمع، الطبيعة، الكلمة المقروءة، المسموعة، المرئية إلى الإناء الداخلي غير المرئي وهو العقل.والمعرفة أشبه بصرح أسسه البيانات، وأعمدته المهارات،يقطنه عقل مفكر باحث عن الحقيقة بمنهج يرشده في دروب العلم. وهناك من يذهب في تحديد الفرق بين العلم والمعرفة إلى القول بأن المعرفة هي إدراك الحقائق، بينما العلم هو فهم الحقائق.

وقد توصلت ندوة ' نحو استراتيجية ثقافية إسلامية في مصطلح المعرفة إلى ضبط تعريف المعرفة كما يلي هي كل معلوم خضع للوحي أو الحس أو التجربة [4].

وهي رؤية أكثر شمولا وإحاطة تستلهم المعرفة من مختلف منابعها سواء تعلق الأمر بتأمل الوحي الإلهي أو بملاحظة واستقراء السنن والظواهر الكونية كرسائل تستنبط منها المعرفة التي يصفها البعض بأنها عملية تتعاون فيها وسائل الحس الظاهرة والباطنة، والآلات والأدوات التي تستخدمها الحواس، وموازين العقل الفطرية والمكتسبة، ومعارفه السابقة التي اكتسبها بنفسه، والتي تلقاها من غيره مما اكتسبه

الآخرون من معارف، يضاف إلى ذلك ما يوحي به الله لأنبيائه من معارف تكون لديهم علوما يقينية أو شبيهة بالعلوم اليقينية التي يكتسبها الناس العاديون بحواسهم"(5).

1-2- **مصادر المعرفة**:Ressource of Knewledge

1-2-1- **المعرفة فطرية:**

يرى الفيلسوف اليوناني سقراط أن العلم موجود بالفطرة في النفس الإنسانية وما علينا إلا البحث في طريقة استخرجه وتوليده من العقل الخالص، حيث يقول "إننا نولد الأفكار ونمارس مهنة أمه القابلة. والخطوة الأولى في طلب الحقيقة بناء على طريقته في التوليد هي التخلي عن الآراء الموروثة كلها في سبيل العودة إلى صفاء النفس الإنسانية فنستخرج منها كل العلوم والمعارف.

وعلى هذا النحو درج تلميذه أفلاطون Plato[1] الذي يعتقد أن الإنسان فطر على معرفة الأشياء، واستنادا إلى مذهبه المثالي يرى أفلاطون أن موضوع المعرفة هو الثابت الذي لا يتغير، وقصد بهذا الثابت عالم المثل[2] أو عالم المعاني الكلية والحقائق الضرورية... (6).

وكل ما يفعله الإنسان هو أن يتذكر هذه المعاني والحقائق الكامنة في عالم المثل والتي فطر على معرفتها ويعد نسيان هذه الحقائق دلالة على الجهل واللامعرفة .

وبناءا عليه" فالأفكار فطرية وكامنة عند الأطفال، يولدون وتولد معهم، ولكي تصل الروح إلى المعرفة والحقيقة التي احتجبت عنها بنزولها من عالمها، عليها أن تتذكر وتسترجع ما كانت تعرفه مستعينة في ذلك بالعقل"(7).

ويعم ديكارت المذهب العقلاني في إنتاج المعرفة معتقدا أنه بالإمكان الظفر بالحقيقة من خلال الاعتماد على قدراتنا العقلية وحدها، لأن هذه الحقيقة هي عبارة عن أفكار وتصورات مودعة سلفا في عقولنا.ونعرف عنه مقولته الشهيرة : وراء العقل والفكر نحن لا نعرف شيئا.

غير أن القرآن الكريم يقرر خلاف ذلك ويؤكد أن الإنسان خلق لا علم له بشيء وهُيأت له جملة من الأسباب لتحصيل المعرفة وفي ذلك يقول تعالى:[والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون] (النحل:78).

1-2-2- المعرفة مكتسبة:

على عكس منحى أنصار نظرية المعرفة فطرية يرى كل من هيراقليطس وأرسطو أن كل المعارف البشرية مكتسبة، وتساعد الحواس على اكتسابها، ففاقد البصر لا يستطيع التمييز بين الأبعاد أو الألوان، لذا فإن الحواس هي منافذ المعرفة الأساسية للعقل البشري الذي تتم فيه عملية المعرفة، فإذا فقد الإنسان الحس انعدمت المعرفة(8).

يرى أتباع هذا التيار أن المعرفة لا يمكن أن تحصل للإنسان إلا بواسطة الحواس فالإنسان يولد وعقله يشبه الصفحة البيضاء الخالية من أية معـان أوليـة أو أفكار فطرية، وعندما يبدأ في الإحساس تنتقش عليه الانطباعات الحسية المختلفة ويبدأ في تكوين أفكار عنها، فالإحساس سابق على التفكير، ولا يوجد شيء في العقل، ما لم يكن قبل في الحس، والانطباعات الحسية ما هي إلا مجرد تلقي لكل ما يكتب عليها فقط وهي ناحية سلبية، ولكن للعقل وظيفة أخرى إيجابية يقوم فيها بربط هذه الانطباعات الحسية لتكوين صورة ذهنية أو تكوين فكرة عن المدركات الحسية (9).

ومن ثمة فالحواس عند أصحاب هذه الرؤية لازمة أساسية لا غنى عنها لحصول المعرفة فهي منافذ مفتوحة يطل من خلالها العقل على الوجود والمنبع الرئيس الذي يزود العقل بالصور الذهنية والمدركات الحسية التي يترجمها العقل بدوره – بعد إجراء عمليات تنسيق وتوظيب على الرسائل الوافدة إليه- إلى معارف، فالحواس هنا بمثابة النواقل التي تُؤمن وصول المواد الأولية إلى العقل كي يتسنى له تصنيع المعرفة وفي غياب هذا التموين يصاب عمل العقل بالشلل. وقد ذهب الباحث "جون لوك" إلى حد اعتبار المعرفة الحسية معرفة يقينية لا يمكن تجاوزها.

ومع أهمية هذه الذخيرة الحسية التي ترد إلى العقل فإنها تظل في غيابه غير ذات جدوى، لأن العقل هو الذي يعطي معنى لهذه المحسوسات فيجعل الرؤية واعية، والسمع بتدبر وإمعان، لأن هذه المؤثرات الخارجية حينما تصل إلى حواسنا ندركها بالعقل وتصبح ذات معنى، ولا تكون مجرد إحساسات عمياء. ولذلك جاء في قوله تعالى:[لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أظل أولئك هم الغافلون] (الأعراف:179). ولذلك فالإدراك الحسي هو الصورة المرتسمة في الوعي العقلي،مؤلف من الرسالة الواصلة إلى العقل مع رد فعل العقل في تمييزها وإضافة شيء إليها أو حذف شيء منها، وهو مماثل لإدراك معنى كلمة بذاتها(10).

1-2-3- المعرفة فطرية ومكتسبة:

يرى مناصرو هذه النزعة التوفيقية أن كل من الحواس والعقل عاجزين على تأمين المعرفة بمعزل عن جهود بعضهما البعض والأفضل أن يتعاونا على بلوغ المراد,ويقر 'ايمانويل كانت[3]' Kant Emmanuel بتداخل بصمات العقل والحواس في بلورة وإنضاج المعرفة مشيرا إلى أن العقل البشري حين يكتسب المعرفة المحسوسة للأشياء الخارجية يضيف إليها شيئا من جوهره وطبيعته... (11).

فالوقائع التي تصلنا بفضل إعمـــال حواسنـــا فيما حولنا تبدو مفككة وقليلة الترابط، ولكن حين يقوم العقل بتنظيمها تبدو أكثر انسجاما من ذي قبل,مما يجعل من الصعب الاستغناء عن أي منها في عملية حصول فعل المعرفة لدى الإنسان.

غير "برغسون" يشكك في مدى قدرة العقل والحواس كليهما في الاقتراب من الحقيقة،فالمعرفة العقلية نسبية وتختلف من فرد لآخر حسب وجهة نظر هذا وذاك من الأفراد حسب درجة تعلمه.كما رفض أن تكون الحواس مصدر معارفنا بدعوى أن معارفها سطحية تتناول موضوع المعرفة من الخارج،لكنها عاجزة على النفاذ إلى باطنه والغوص في صميم حياته. والحل حسب وجهة نظر "برغسون" يكمن في تبني المعرفة الحدسية التي تعتمد الذوق أو الحدس[4] أو الوجدان.

وفي هذا الإقرار اعتراف بعجز عمل الحواس ونشاط العقل كل على حدى وتسليم بصعوبة الحديث عن معرفة متكاملة ما لم تحضى بتزكية كل منهما والعقل بما لديه من موازين فطرية يعتبر حكما يرجع إليه في تمحيص المدركات بالحس، وتمحيص ما تتضمنه شهادات الآخرين وأخبارهم من معارف، فيجزم بما يراه حقا يقينا، ويقبل ما يترجح لديه منها، ويطرح ما يشك به أو ينزله إلى مادون الرجحان، ويرفض ما يحكم بامتناعه واستحالته بناء على قوانينه الذاتية (12).

والحقيقة أن المذهب التوفيقي هذا خفف بظهوره من غلواء الصراع الدائر بين الاتجاهين اللذين سبقاه عن طريق استحداث شراكة علمية بينهما من خلال الاعتراف بدور العقل والتجربة في إنتاج المعرفة، وقد جاء هذا الاتجاه العلمي الحديث ليضع حدا لجدال طويل غرق فيه الفكر الفلسفي في محاولاته للإجابة على سؤال :أيهما أحق بإنتاج الفعل المعرفي العقل أم التجربة ؟

وبناء عليه فإن العقل والحواس لهما دور تكاملي في عملية المعرفة على أساس أنه لا مجال لوجود وعي بدون تجربة، أي بدون تأثير من جانب العالم الطبيعي والإنساني على الإنسان، ولا تجربة بدون وعي، أي بدون وجود ذات تعي ذلك التأثير وتترجمه إلى أفكار تستخدمها فيما بعد للتأثير في ذلك العالم، وخارج هذه العلاقة- علاقة التأثير المتبادل بين الإنسان والعالم، وأيضا بينه وبين المجتمع الإنساني- لا مجال للحديث عن تجربة ولا عن معرفة [13].

فعن طريق المواءمة بين طاقة العقل الفكرية ومعطيات التجربة الاجتماعية يمكن بناء معرفة إنسانية واقعية لأن المعرفة الموجودة في عقولنا لا تنفصل عن جملة الحضارة أو الثقافة السائدة في العصر الذي يعيش فيه صاحب المعرفة [14].

فالعقل يصدر أحكامه على ما يرد إليه من مدركات حسية وفق ضوابط ومحددات تجعل العقل أبعد عن الانحياز إلى الهوى أو الانسياق وراء الرغبات الذاتية، ولكن هل يمكن للعقل أن يصدر أحكامه في منأى عن هذه الضغوطات، والى أي مدى يمكن ضمان النزاهة العلمية فيما يصدر عن العقل من آراء وأحكام ؟

1-2-4- المعرفة تكامل بين عالم الغيب وعالم الشهادة:

لعل القراءة المتأنية للأسانيد والأدلة التي اعتمد عليها في الانتصار لوجهات النظر السابقة تفيدنا أن كل فريق كان يحرص عل إثبات وجهة نظره بغض النظر عن مدى قربها أو ابتعادها عن الحقيقة الموضوعية، فإذا كان الإنسان بالفعل يولد مزودا ببعض المعارف الفطرية التي تساعده على التكيف مع وسطه الاجتماعي غير أن هذا يجب أن لا يحملنا على الجزم بأن كل معارف الإنسان فطرية ولا يتسلل إليها الشك لأنها صادرة عن عالم المثل الإلهي أما العالم المحسوس فهو موضوع ظن أو اعتقاد وليس موضوع معرفة بالمعنى الدقيق. وبالتالي كل القضايا التجريبية أو الحادثة تحتمل الخداع والكذب ولا يقين فيها [15].

ويظهر أن هذا الحكم فيه كثير من المبالغة والتجني على عالم المحسوس الذي يتهم بقصوره على بلوغ الحقائق ويكتنفه قدر من عدم اليقين، وقد كان السوفسطائيون(sophists)* -الذين باشروا البحث في موضوع المعرفة في القرن الخامس قبل الميلاد وعلى رأسهم بروتاغوراس وجورجياس- أكثر تطرفا حينما أجزموا باستحالة قيام معرفة إنسانية موضوعية وحجتهم في ذلك قصور الإحساس فهو"خادع وكاذب بدليل

أنه ينقل الكبير صغيرا والخطين المتوازيين ملتقيين على البعد، والمجداف مكسور في الماء صحيحا خارجه وهكذا..."(16).

وهذا الرأي يتعارض مع ما ذهب إليه أنصار المعرفة المكتسبة الذين يعتبرون أن الحواس تمثل حجر الزاوية في المعرفة الإنسانية,ومع تقديرنا لرجاحة هذا الر أي إلا أننا نلمس مبالغة في تضخيم دور الحواس في عملية المعرفة إلى الحد الذي يتحول معه العقل إلى مجرد جهاز للاستقبال يتعطل مفعوله بغياب الحواس"وان كل فكرة تتولد في الذهن إنما ترتد إلى مصدر واحد فقط هو التجربة أو الخبرة وليس الحد س العقلي كما يقول ديكارت"(17).

وما يجب التأكيد عليه في هذا المقام هو أن حواس الإنسان مهمة في عملية المعرفة ودليل أهميتها قوله تعالى: [ولا تقف ما ليس لك به علم إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا] (الإسراء: 36:). فهي ضرورية كوسائل إدراك ووعي وتمييز إلا أنها قاصرة بمفردها على الإحاطة بكل حقائق الكون.فالله سبحانه وتعالى رزقنا البصر والسمع والفؤاد وجعلها من وسائل الإدراك. فالقرآن يؤكد ضرورة المشاهدة الصحيحة باستخدام البصر والسمع والعقل معاً كأساس للمنهج العلمي التجريبي.

لقد أشاد أنصار النزعة العقلية بأهمية العقل في تشييد الحقيقة، وقد دفعت الثقة المفرطة في إمكانات العقل 'رينيه ديكارت'[5] للمناداة بالاعتماد عليه في إقامة المعرفة الموضوعية اليقينية حيث نجده يقول: إن معنى الحقيقة فطرة في الإنسان لا يحتاج في أمرها إلى لقائه وآيتها النور الفطري، أو الغريزة العقلية (18).

وعلى الرغم من أن العقل هو مناط التكريم الإلهي للإنسان إلا أن الإيمان المطلق بقدرته على بلوغ اليقين قد يؤدي إلى مز الق تمس بمكانة العقل ذاته وتشوه المعرفة، وحتى يأمن العقل عواقب هذا الانحراف فلابد له من مرجعية تقيه الزلل والخطأ وهذه المرجعية هي علم الوحي* الذي يستمد منه العقل المسلم قوته وتوازنه وثبات خطواته واستقامته (19).

فالوحي هو الناظم لعمل العقل والحارس له والضابط لمسيرته,ذلك أن العقل البشري بطبيعته يعتري عمله التقصير مما يجعله بحاجة لسلطة الإرشاد والتصويب والتقويم,وهذه المسؤولية لا يقوى على النهوض بها سوى الوحي- لأن الفلسفات التي ألهت العقل أو حنطته باءت بالفشل الذريع- فالقرآن الكريم معجزة متفردة لم تأت لتدهش

العقل وتعجزه وتشل فعالياته، وإنما جاءت لتحفز على النظر والتفكر والتدبر في الأنفس والآفاق فهي لذلك معجزة عقلية تستنفر العقل للفعل...وتعينه على معرفة مالا يستطيع لنسبية إدراكه أن يستقل بمعــرفته... [20]. وعليــه فالعلم يظل أعرجا في غياب سند الدين، والدين دون نور العلم أعمى.

وعن تعسفية الفصل بين المعرفة والمعتقد يقول الباحث دومينيك لوكور Leccourt Dominique: منذ عصر النوار، ونحن في أوربا، نعيش خرافة قاتلة تقوم أساسا على اعتبار أن التقدم العلمي يؤدي، لا محالة، إلى تراجع المعتقدات[21]. ذلك أن المعتقدات بحسب الرؤية الوضعية تمثل أشكال أولية أو ناقصة للمعرفة الإنسانية،ومع نضج التفكير يتم التخلي عن المعتقدات بالتدريج. في حين نجد أن مجتمعات تصل درجات متقدة من المعرفة ولكنها لم تتخلى عن معتقداتها وإن كانت مشبعة بالخرافة كما هو الشأن عند الهنود واليابانيين. فما بالك إذا كان هذا الاعتقاد ناجم عن الوحي المنزل لهداية الإنسان. ولكننا نسارع فنقول إن الإيمان بالله تعالى أعلى مرتبة من العلم بمخلوقاته. أي انه في المنظور الإسلامي الذي يشمل الدنيا والآخرة يأتي العلم بالله في المرتبة الأولى، ثم الإيمان به في المرتبة الثانية، ثم العلم بمخلوقات في المرتبة الثالثة، ثم الإيمان بمخلوقاته في المرتبة الرابعة[22].

ومن هنا فإن التصور الغربي للوجود موسوم بالقصور، ما فتئ الباحثون الغربيون أنفسهم يبرزون بعض معالم هذا القصور، دون القدرة على الخوض فيها مجملة، ولاشك أن التصور الإسلامي يستوعب هذا الخلل ويتمم النقص، وهذه أهم مرتكزاته:

1 – إن الإنسان والكون(الطبيعة) الذي يعيش فيه ليس وحدهما في الوجود بل كلاهما يبتدئ من الله خلقا ووجودا وينتهيان إليه مصيرا وهو المهيمن عليهما.

2 – الطبيعة لم تخلق نفسها ولم توجد بنفسها بل أوجدها الله وهي تسير على سنن مطردة فق نظام مترابط الجزاء والله الذي خلقها هو المقدر لسننها ونظامها.

3 – العقل الإنساني ليس وحده أداة الوصول إلى الحقيقة بل هناك طريق آخر وهو الوحي.

4 – الإنسان ليس حيوانا مفكرا فحسب، بل إن عناصر تكوينه تتجاوز ذلك فتزيد على العضوية والتفكير(23).

ومن ثمة فقد صاغ فلاسفة الإسلام نظرية في المعرفة انفردت بخاصية التميز والشمول مفندة مزاعم الطروحات السابقة القائلة بتناقض العقل والنقل، ويذهب أبو حامد الغزالي[6] في تأكيده لوثيق الصلة ووطيد العلاقة بين الشرع والعقل إلى حد قوله: فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر، فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان بل متحدان (24).

فعلى عكس التصور الغربي الذي يختزل المعرفة في عالم الوجود-أي الواقع والكون دون سواه فإن التصور الإسلامي يتبنى منهجا تكامليا لمصادر المعرفة يجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة مفاده أن المعرفة الإنسانية المتراكمة أتت من مصدرين أحدهما إلهي وهو الوحي والآخر بشري وهو العقل والحواس والتجربة، وقد ترجم فلاسفة الإسلام بأمانة وصدق هذا المنهج حيث اعتمدوا أربع هدايات وسبل لتحصيل المعرفة الإنسانية هي العقل والنقل-الوحي-والتجربة والوجدان وهي سبل لا تعمل فرادى، معزولا كل منها عن الآخرين، وإنما تتكامل على النحو الذي تصبح فيه منظومة واحدة... (25). فالتصور الإسلامي يعد بمثابة إعادة بناء للنسق المعرفي بحيث تتسق فيه مدارك العقل مع معارف الوحي بغية تصويب الوجهة التي يعمل وفقها الإنسان. بحيث لا يكون تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول،ذلك أن مصدر العقل والوحي هو الله، فلا يمكن أن يقع التناقض والتعارض،وأن أي تعارض معناه ضعف في سند المنقول،أو عجز أو خطأ في كيفية الاستدلال. وعند احتمال التعارض، فإن حكم الوحي المعصوم مقدم على حكم العقل المضنون(26).

ففي ظل التصور الإسلامي هناك تلاحم بين عالم الغيب وعالم الشهادة,فآيات الكتاب المسطور هي المفاتيح التي تساعدنا في فهم العالم المنظور، والدلائل المودعة في العالم المنظور هي التي تعزز إيماننا بآيات العالم المسطور، فالمعرفة وفق هذا التصور تجمع بين العقليتين الغيبية والعلمية وبذلك تكون على بصيرة بالسنن الحاكمة للوجود الإنساني، يقول الإمام الراغب الأصفهاني[7]:لله عز وجل إلى خلقه رسولان، أحدهما من الباطن وهو العقل والثاني من الظاهر وهو الرسول، ولا سبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ولولاه لما كانت تلزم الحجة بقوله، ولهذا أحال الله من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على

العقل فأمره بأن يفزع إليه في معرفة صحتها، فالعقل قائد والدين مدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيا، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرا واجتماعهما كما قال الله تعالى نور على نور [26].فالتأمل العقلي المنضبط هو أحد سبل ترسيخ الإيمان، وتوسيع آفاق العلم وتعميقه، وهداية الإنسان وترشيد مساره، ونجد في هذه الآية تلاحما شيقا بين هدايات العقل والنقل، قال تعالى:[قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي](البقرة:260).وبهذا لا تكون المعرفة العقلية مناقضة للمعرفة الإيمانية.

ويؤيد أبو حامد الغزالي ما ذهب إليه الأصفهاني من ضرورة مد جسور التواصل والتكامل بين العقل والشرع تكامل الأس والبناء لأن وشائج القربى بينهما قوية فبرأيه يعتبر العقل القاضي الذي لا يعزل، ولا يُبدل، والشرع الشاهد المزكي المُعدل، ويجعل العقل مركب الديانة وحامل الأمانة [27].ومن هنا يتبين أن العقل الذي يخاطبه الإسلام هو الملكة التي بها يعصم الضمير، وعن طريقها تدرك الحقائق، وبها تتم الموازنة بين الأضداد ويكمل التمييز بين الأمور، وبها يتبصر الإنسان ويتدبر، ويحسن الرؤية والإدراك[28]. لأن الإيمان القويم لا يتم إلا بالعقل الذي يعد دعامة الدين؛ ولذلك فالمنظور المنهجي الإسلامي في المعرفة يتميز بالتكاملية، فليس العقل الإنساني أداة وحيدة للوصول إلى الحقيقة، وإنما هناك طريق آخر هو الوحي.

والوحي ليس تقييدا لحرية العلم أو انتقاصا من موضوعيته وحياده العلمي,كما تزعم بعض التيارات التي ترى بأن العلــم والمنهــج العلمي يتعارضان مع المعرفة الغيبية، بل بالعكس فالعلم في ظلال الوحي تنفتح له آفاق الخلق والإبداع من خلال حفزا لعقل على التفكير الدائم من أجل اكتشاف المزيد من السنن التي أودعها الله في الكون، كما أن الباحث يشعر دوما بالتواضع لأنه لا يملك الحقيقة الكاملة التي هي وقف على خالق الكون والإنسان، وتثبت شواهد التاريخ العلمي البشري أن الحقائق والانتصارات التي يزدهي بها العلم اليوم، لم تثبت عكس ما جاء به الوحي، بل بالعكس تُبنى النظريات وتنهار لتؤكد وتُصدق ما ورد في آيات القرآن الكريم منذ خمسة عشر قرنا، وفي ذلك حكمة إلهية فيها حث للعقل على القيام بوظيفته التي خُلق لها وهي استنباط القوانين التي يسير على هديها نظام الكون العجيب.وصد ق الله العظيم إذ يقول:(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق...)(فصلت:53).

شكل(1): يوضح أشكال المعرفة بحسب مصادرها

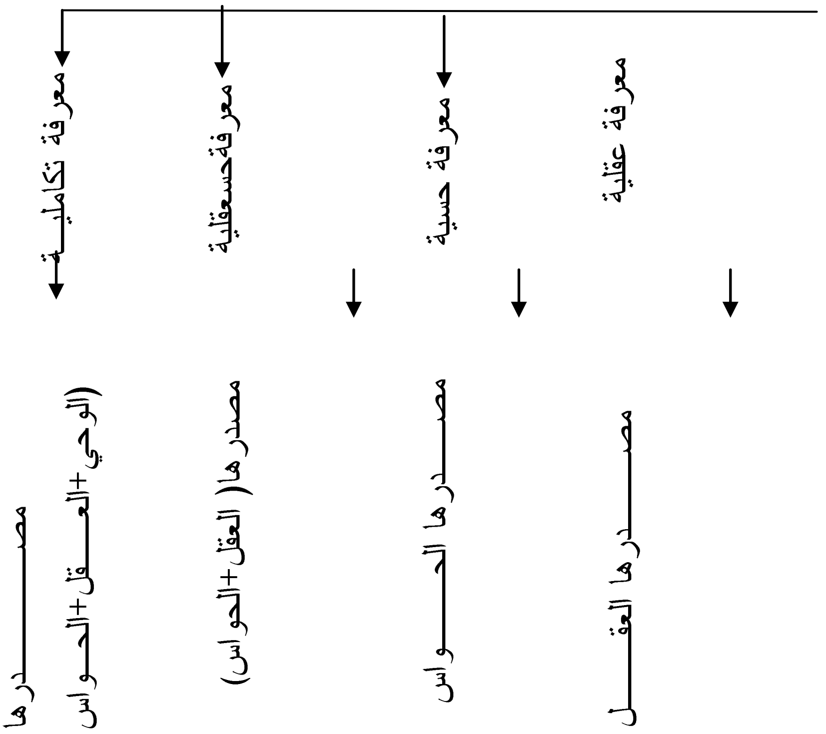

المصدر:إنشاء شخصي.

وعليه فالمعرفة التي يكتسبها الإنسان تتسم بطابع الوحدة فلا ازدواجية في المعرفة مادام الهدف الأسمى والنهائي لها هو الوصول إلى الإيمان بخالق الكون.

ولاشك أن هناك ضرورة ملحة كي تتعاضد تعاليم الوحي مع حقائق الكون لتفرز لنا معرفة أكثر موثوقية وموضوعية وأقرب إلى التعبير عن حقيقة الوجود ،وبذلك تنتهي تلك القطيعة المفتعلة التي استمرت ردحا من الزمن والتي أعاقت العقل البشري عن إبصار الظواهر بمنظار متكامل ومتوازن ؛ويبين الشكل التالي كيفية إنتاج المعرفة الإنسانية عبر تلاقي عالم الغيب مع عالم الشهادة وتناغم حقائق العالمين.

خلاصة:

تعكس المعرفة في مفهومها التطور التاريخي والخبرة الخاصة بالمجتمع الغربيمما يجعل مثـــل هذه المفاهيم منفصلة ولو جزئيا عن الخبرة الخاصة بالمجتمع العربي المسلــم، وعليه بات من الضروري لفت الانتباه إلى هذه المسألة والإشارة إلى هذا الجانب في تحديد مفهوم المعرفة والتنويه بكل المحاولات العلمية الجادة لتسليط الأضواء على هذه الزوايا المغيبة في البحث.

فالمعرفة في المنظور الإسلامي تتظافر في صنعها الحواس وأدواتها والعقل وموازينه، والوحي الذي يعد معارف يقينية يتلقاها الأنبياء ويقومون بنشرها بين الناس.فالرؤية الإسلامية في إنتاج الفعل المعرفي تتبنى مبدأ تكامل المكتسبات المعرفية في مجال الدراسات الإنسانية؛والغاية المتوخاة من سلوك هذه المنهجية هي تعزيز قدرات الإنسان وتعميق فهمه، وتوظيف ذلك في ممارساته الحياتية بما يلبي مقتضيات الإيمان ويستجيب لمتطلبات رسالته الاستحلافية في الكون.

لهــذا ينـــادي الإسلام بربط القرآن بالكون، أي: ربط الوحي بالوجود، والدين بالعلم، والغيب بالشهادة، وعالـــم المسطور بعالم المنظور كأساس لإسلامية العلم والمعرفة، لأنه لا تعارض بين الدين والعلم في الإسلام.الدين هو سبيل الإنسان للتواصل مع الوجود وإدراك رسالته في الكون، كما إن الدين يحوط العلم بسياج يصونه من الانحراف نحو ما يضر الإنسان، ويجعله رهنا بسعادته، محققا له السكينة النفسية الدنيوية وعدم الحزن أو الخوف في الآخـــرة، فمفتـــاح الإسلام هو العلم والفهم، وجوهره الإيمان، وغايته النعيم والرضوان.

المراجع:

*- القرآن الكريم

1-باشلارغاستون,**فلسفة الرفض**، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الحداثة بيروت، ط1 1985، ص 11.

2-SumpfJoseph&HuguesMichel ،Dictionnairede sociologie ،librairie larousse paris ،1973 ،p67

3- احسان محمد الحسن، **الأسس العلمية لمناهج البحث الإجتماعي**، دار الطليعة، بيروت، ط1 1982، ص07.

4- الأمين عبد الحفيظ أبو بكر، **توجيه العلوم وفق المنهج الإسلامي**، دار الوفاء الإسكندرية القاهرةظ، 2002، ص53.

5- الميداني عبد الرحمان حسن حنبكة، **ضوابط المعرفة**، دار القلم بيروت، ط2 1981، ص126.

6- زيدان محمود,**نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين**، دار النهضة العربية، بيروت ط1 1989، ص26.

7- دنيا محمود طنطاوي، **أصول التربية**، وكالة المطبوعات، الكويت، د.ت، ص91.

8- جنزرلي رياض صالح، **الرؤية الإسلامية لمصادر المعرفة**،دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1994،ص12.

9- طعيمة صابر، **المعرفة في منهج القرآن الكريم**، دار الجيل بيروت، د.ت، ص200-201.

10- ضومط أميل جبر، **العقل والقلب خواطر في العلم والتربية**، مكتبة صادر بيروت، ص17.

11- دنيا محمود طنطاوي، المرجع السابق، ص15.

12- عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، **ضوابط المعرفة وأصول الاستدلالوالمناظرة**، دار القلمدمشق، ط5 1998، ص134.

13- حامد خليل، **مشكلات فلسفية**، جامعة دمشق، ص292.

14- السايح أحمد عبد الرحيم، **المعرفة في الإسلام**، (د.ن)، 1980، ص16.

15- زيدان محمود، مرجع سابق، ص26 .
16- الدسوقي فاروق أحمد، **الإسلام والعلم التجريبي**، المكتب الإسلامي بيروت، مكتبة الخاني الرياض، ط1 1987، ص30.
17- طعيمة صابر، المرجع السابق، ص200.
18- لوقا نظمي، الحقيقة ص49 في جنزرلي رياض صالح، **الرؤية الإسلاميةلمصادر المعرفة**،دار البشائر الإسلامية بيروت ط1 1994، ص13.
19- أبو سليمان عبد الحميد أحمد، **أزمة العقل المسلم**، دار الهدى عين مليلة الجزائر، 1992، ص112.
20- عمارة محمد، **الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية**، دار الرشاد، القاهرة، 1998، ص47.
21-لوكوردومينيك، المعرفة، المجتمع والمعتقد، **مجلة الدراسات والنقد الاجتماعي**، ع13،شركة النشر والتنشيط العلمي والثقافي، الجزائر، خريف/شتاء2000، ص09.
22- المنتدى الإسلامي العام،العلـــــــــــم والإيمان: مدخـــــل نظـــــــــرية المعرفةفيالإسلام
http://quran.maktoob.com/vb/quran19897(21/10/2008:09:56)
23-المبارك محمد، **نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع**، مجلة المسلم المعاصر، ع09 1977، ص20.
24- الغزالي أبو حامد، **معارج القدس**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (دت)، ص57.
25- عمارة محمد، المرجع السابق، ص49.
26- حسنة عمر عبيد، **الشاكلة الثقافية:مساهمة في إعادة البناء**، المكتب الإسلامي، بيروت، 1993، ص47.
26- الأصفهاني الراغب، **الذريعة في مكارم الشريعة**، تحقيق أبو اليزيد العجمي,دار الصحوة، القاهرة، (دت)، ص207.
27- الغزالي أبوحامد، **الإحياء** ج3، دار المعرفة بيروت، (د.ت)، ص17.
28- العقاد عباس محمود، **التفكير فريضة إسلامية**، ص5-21.

الهوامش:

[1]- فيلسوف يوناني(427قم-337قم) تتلمذ على يد سقراط وقال بنظرية المثل في المعرفة التي يرجع فيها المعرفة إلى التعقل المحض.

[2]- مصطلح فلسفي يطلق بصفة عامة على نزعة فلسفية ترد كل وجود إلى الفكر بأوسع معانيه، والمثالية تقابل الواقعية التي تشير إلى الالتزام بحدود الواقع في التفكير والسلوك.

[3] -يعد ايمانويل كانت(**1724-1804**) من أبرز أنصار المذهب النقدي القائم على الثنائية في المعرفة بين الذات العارفة والموضوع المعروف،لأن طبيعة المعرفة تفاعلية بين مبادئ ذاتية قائمة في العقل البشري،ومدركات حسية يستقبلها العقل من الخارج.

-[4]الحدس عند هنري برغسون عبارة عن تعاطف ومشاركة وجدانية تغوص في باطن الواقع بكل ما في الواقع من خصوصية ينفرد بها مما لا يمكن التعبير عنه بالتصورات والألفاظ العامة.

[*]-أصل السفسطة في اليونان (سوفيسما) وهو مشتق من لفظ سوفوس بمعنى حكيم حاذق،والسفسطة هي الحكمة المموهة.والسوفسطائيون هم فرقة من الفلاسفة اليونانيين أطلقوا على أنفسهم الحكماء أو مجسدي الفكر المستنير بحثوا في موضوع المعرفة ومالوا نحو المثالية الفلسفية حتى عُرفت مجادلاتهم بالسفسطة لأنهم مارسوا الجدال بقصد المغالطة.

[5]- رينيه ديكارت(1590-1650) فيلسوف وفيزيائي فرنسي استنتج وجود الإنسان انطلاقا من المبدأ القائل: أنا أفكر إذن أنا موجود.

[*]- الوحي يتمثل في النص القرآني المجسد لكلام الله الذي ليس فيه للرسول أية إرادة أو اختيار في التحصيل.من ثم يصبح المضمون القرآني هو العلم اليقيني، ويصبح التفسير شرحا هدفه التوصل إلى ذلك اليقين.

[6]- أبو حامد الغزالي(1058-1111)متصوف معتدل من أشهر وأكبر أئمة العقيدة في الإسلام قوم الفلسفة اليونانية من أهم آثاره إحياء علوم الدين، المنقذ من الظلال، مقاصد الفلاسفة، تهافت الفلاسفة.

[7]- إمام من حكماء العلماء، من أهم آثاره الذريعة في مكارك الشريعة، جامع التفاسير، محاضرات الأدباء.